

صورة . . . وصورة . . .

للأستاذ محمد محمد المدني



هذه كلمة من نوع ما كنت أكتب من الأزهر من قبل ،
باحث النفس بآثارها ، ولكن كلمة الأستاذ الزيات :
« هل انبت الأزهر » قد أثارت كامن الشوق القديم :
وذو الشوق القديم وإن تسمى مشوق حين يلقى الساشقينا !

المصورتان متقابلتان كأنهم ما يكون من التقابل ، متناظرتان
كأعنف ما يتصور من التناظر ، وهما مع ذلك مجتمعتان في مكان
واحد ، وبينهما صلة جوار قريب ورابطة قوية يبدو أنه لا سبيل
إلى التخلص منها قبل زمن بعيد !

ليس الموضوع خيالاً يا عشاق الخيال ، وإنما هو الواقع
الذي لم نفسه للتساوير ، والحقيقة البراءة من اللبائغ والتحويل !
الصورتان في الأزهر ، والأزهر يحتفظ بهما معاً ،
ويصانعهما معاً ، ويود لو بقي للناس غافلين عنهما ، متصرفين
من النظر إليهما

الصورة الأولى

صورة باسمه مشرقة متميزة للملامح والقصبات ، يشع منها
نور الإيمان ، وتبدو على عيائها سمات العقل والتفكير : لمن هذه
الصورة ؟ إنها صورة أزهرى صحيح للفكر ، رشيد للعقل ،
واسع الأفق ، لا يضيق صدره بما يأخذ به الناس من أسباب
حياتهم ، وألوان ثقافتهم ، وطريقة تفكيرهم مادام ذلك في حدود
العقل الصحيح والدلم الصحيح !

يشعر بأن الأزهر في عهده الحديث مطالب بأن يفهم
ما حوله فهماً صحيحاً ، لأن هذا للفهم ضروري له ، وضروري
للدن الذي يحمل لواءه ، وضروري للأمة التي تجمله منها
في مكان القيادة !

فهو ضروري له ، لأنه إذا لم يفهم ما حوله فهماً صحيحاً ،
ظل يخبط في ظلمات ، ويضرب في مجاهل ، فتكون النتيجة

— وبالقول ١ — أن يفقد اعتباره أمام الأمة ، وأن يكره بمد
حين قريب أو بعيد ، على التخلي عن مركزه للتاريخي العظيم فيها !
وهو ضروري للدين ، لأن الدين هدو الجهاد والجمود ،
ولو كان الإسلام يرضى بالجهل أو يسكت عنه ، أو يجب الجمود
أو يصبر عليه ، لما عاش هنا العمر المبارك الممتد إلى آخر الزمان
إن شاء الله ، بل لما وصل إلينا لليوم إلا طغياناً جريحاً ، أو هرمًا
عملت الليالي والأيام فيه ، ولكنه وصل إلينا شاباً تجري في
شرايينه دماء الحياة نقية متدفقة ، وصل إلينا قوياً غلاباً حراً
بمحاضرات وحضارات فلم يضق بشيء منها صدره ولم يقف أمام
واحدة منها حائراً متردداً ، ولا مأخوذاً مشدوهاً ؛ وصل إلينا
سليماً متصراً ، قد تكسرت من حوله النصال ، وتحطمت السهام ؛
ذلك بأنه دين الفطرة والعقل والدلم والإصلاح !

وهذا للفهم الصحيح ضروري للأمة نفسها ، لأن الأمة
تتشدد لأبنائها ثقافة قومية إسلامية خالصة ، ولا ترضى بأن تفتى
في غيرها ، أو تؤخذ بثقافة غريبة عنها حاضرة عن أن تعدها
بوسائل الحياة التي تصاح لها ، قاصرة عن أن تثير في نفسها
شعور العزة والكرامة والتطلع إلى تاريخها ومفاخرها . تشدد
الأمة لأبنائها هذه الثقافة وتتجه إلى الأزهر طالبة منه
أن يعدها بها ، لأن الأزهر قد زامل تاريخها القوي به تعزز ،
ولأنه هو الذي حفظ لها هذه الكنفوز في الدين والفقهاء والفتنة
والأدب ، ولأن الأزهر هو مدرسة الشعب العليا التي تجمع
ابن الفلاح وابن الصانع وابن التاجر من سواد الأمة الذين
يفهمون حاجاتها ، ويدركون ما تصلح به شئونها !

فإذا ما تخلف الأزهر عن تلبية هذه الرغبة ، ولم يقابل ثقة
الأمة به ، وتمويلها عليه ، بالنشاط والعمل والتقدم نحو الكمال ،
ولم ينتفع بهذا المركز الفريد الذي ميزه به تاريخه وعلومه وطبيعته
رسائله - أذاق الأمة لباس الحرمان والقهجية ، ودفعها إلى
أعداء الإسلام كرهاً من حيث لا يحتسب

تقول الأمة الإسلامية للأزهر : إن من أعز آمالي أن أحمل
عليك عبء تزويدي بما أحتاج إليه من قانون وتشريع ، وقفه
وتضاء ، وأن أحمل برأيك للتأصيح في جميع نواحي الحياة :

على كل رأى قديم ، مهما كان أسره ، هذه للقدسية التي لا يبرنها الإسلام إلا لله ورسوله !

إن هؤلاء الذين سبقوكم قد قاموا بما يجب عليهم ، وأدوا إلى الله أمانتهم ، ولبوا حاجات عصورهم ، وكانوا يصدرون فيها روي أو يقولون عن نظر وتأمل واقتناع ، فمن البر بهم أن تسبوا على سنتهم ، وأن تهتدوا بهديهم : فلبوا حاجات عصرهم - في حدود الشريعة - كما لبوا حاجات عصرهم ، وتصدروا عن فهم ووزن صحيح لحاجات أمتكم ، كما أصدروا عن مثل ذلك ذلك هو النداء الروحي الذي يشر الأزهري الناضج بأن الأمة تنادي به الأزهري ؛ وذلك هو للصوت المدوي الذي ينادي به الدين أبناء الدين ؛ وذلك هو الروح للكرم الذي يوحى به الإخلاص للأزهري ورسالة الأزهري !

هذه إحدى الصورتين المتقابلتين في الأزهري !

الصورة الثانية

أما للصورة الثانية فيالله ، كيف أسورها ؟ إنها صورة مظلمة تابعة تبيو عنها للمين ، وينقبض لمرآها الصدر : شيخ يبيش في عصر النور والعلم ويأبي إلا أن يكون بروحه وهوله في عصر الجهالة والتمصب والنموض والإيهام

تقول له : قال الله ، فيقول لك : قال فلان في شرح كذا أو حاشية كذا . وتقول له : تأمل هداية الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه ، واعتبر بتطبيقه لآيات الله ، وفهمه وفقهه في أحكام التشريع . فيقول لك : هذه مهمة المجتهدين وقد انقضى عهدهم ، وأصبح الزمان لا يجود بمثلم . أما أنا فقلد وسأبقى مقلداً ، لأن فلاناً يقول في منظومته :

« وواجب تقليد حبر منهم ... »

وهكذا يجعل للتقليد واجباً له مرتبة العقيدة !

وتقول له : أنظر ماذا كان يفعل الأصحاب الأولون ، وكيف كانوا يفهمون العقائد والأحكام كما نزلت في كتاب الله ، لم تشبها للشوائب ، ولم تفسدها للذئاب الباطلة ، ولم تؤثر فيها للنحل الغريبة ؛ فيخالطه الشك في أمره ، ويجرى لسانه بألفاظ

في الاجتماع ، في الاقتصاد ، في السياسة ، في العلم ، في الأدب ، ولكن ينبى أن يكون منك تقدم وخطوات عملية في جميع هذه للنواحي ، تشعرنى بأنك عرفتها ودرستها عن خبرة وفهم وتحقيق ومقارنة ، ولا أكتفى منك بهذه الدراسات اللفظية الأثرية ، ولا بهذه الأفكار التقليدية التي لو كان أصحابها الآن يبنوا لتخلوا عن كثير منها

لقد كان الفقيه المجتهد يغير رأيه في المسألة الواحدة مراراً ، لاطلاعهم على ما لم يكن قد اطلع عليه ، أو لانكشاف حالة لم تكن قد انكشفت له ، أو لناقشة عالم أفتنته بما لم يكن مقتنعاً به ؛ وقد مر على هؤلاء الرجال المفكرين قرون وقرون ، وحدثت أحداث ، وحدثت نظم ، وتغيرت دول ، وانكشف للناس من أسرار الله في الحياة ما لم يكن قد انكشف ، وظهرت مشكلات ومسائل وقضايا من طراز جديد ، فكيف يلتوى عنق الأمة إلى الماضي من غير نظر إلى الحاضر ، وكيف تقف والفتك المحرك دائر ؟ في البلد شركات مالية تقوم على أساس من الاقتصاد خاص ، وفي البلد مصارف أصبحت جزءاً مقوماً من نظام المال في الدنيا ، وفي البلد ألوان من النظم والمعاملات لم تكن معروفة فيما مضى ، فهل درستهم نظام هذه للشركات والمصارف ؟ وهل تفهمتم أصول هذه المعاملات والنظم ؟ وهل تبيتم من ذلك كله ما يتفق مع التشريع الصحيح وما لا يتفق ؟

في البلد مشكلات اجتماعية ، وعمل تحتاج إلى الإصلاح ، فهل فكرتم في أن تجدوا حلاً لهذه المشكلات ودواء لهذه الملل ، ثم عرضتم ذلك عرضاً منتظاً جاداً حازماً على ولاة الأمور ، وأقنتموهم بالصلاح فيما تعرضون ؟

إن أحداً من الناس لا يستطيع أن يقول : إن التشريع الإسلامي ليس كفيلاً بإسعاد المجتمع ، وإنهاض الأمة ؛ ولو قال ذلك أحد من الناس لكان ممسكاً في الخطأ ، جاهلاً بالحقائق ، أو عدواً للإسلام جاحداً بفضله

ولكن قبل أن تبادوا بذلك ، تحملوا أنتم أولاً من هذه القيود التي أنفلتكم . تحملوا من هذه الدراسات اللفظية الأثرية التي شغلتمكم . برئوا أنفسكم وكرموا وجه العلم من أن تحملوا